مارتين لوثر

بقلم الدكتور على مظهر

ولد مارتين لوثر فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر من عام ١٤٨٣ فى مدينة إيسلبن بألمانيا ، وتعلم بمدارس منسفلد ومجدبرج وإيسناخ ، وبدأ دراسته فى سنة ١٥٠١ فى مدينة أرفورت ، ودخل فى دير الأوغسطينيين سنة ١٥٠٥ ، وصار أستاذاً سنة ١٥٠٨ فى مدينة فيتنبرج ، وحصل على إجازة العالمية فى اللاهوت سنة ١٥١٢ بعد أن سافر إلى روما لأمور خاصة بطريقته الدينية ، وفى آخر أكتوبر من سنة ١٥١٧ علق خمسا وتسعين رسالة على كنيسة القصر فى فيتنبرج ، ولما كانت سنة ١٥٢٠ أحرق إعلان البابا بحرمانه ولعنه ، وأرسل فى السنة التالية لمجلس النواب فى فورمس اعترافا ملؤه البطولة ، ولما ألقى عصا التسيار بالفارتبورج فى السنة عينها رغم إرادته ، بدأ ترجمة الانجيل إلى الألمانية (من أبريل سنة ١٥٢١ إلى مارس سنة ١٥٢٢) ، وكان ذلك جرأة منه وعملا لم يأته أحد من قبل ، ثم إنه ترك الدير سنة ١٥٢٤ وبنى بكترينا فون بورا فى السنة التى تلتها ، ولما كان عام ١٥٢٩ كتب قاعدتى مذهبه ، وألقى خطابا دينيا فى مدينة ماربورج ومعه آخر اسمه تسفنجلى ، وكتب مقالة للمجمع الدينى العام الذى انعقد سنة ١٥٣٧ ، ثم انتقل فى اليوم الثامن عشر من فبراير عام ١٥٤٦ إلى رحمة ربه بمدينة إيسلبن التى ولد فيها .

لقد قدم لوثر للأدب الألمانى خدمات كبيرة بترجمته الانجيل ، وقد بدأ بذلك فى فارتبورج وأتم الترجمة فى مدينة فيتنبرج ؛ وقد تم طبع العهد الجديد فى سبتمبر سنة ١٥٢٢ ، أما العهد القديم فقد ظهر بعد عقد من الأعوام ، وطبع الانجيل كله (العهدين معا) بمدينة فيتنبرج سنة ١٥٣٤ ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ترجم فيها ذلك الكتاب المقدس من اللاتينية إلى لغة أخرى ، وقد جاء من بعده من قام بنفس العمل ونقل الانجيل إلى الألمانية ، وامتاز بعضهم بدقة الترجمة فى بعض التفاصيل لما دخل على اللغة من التحسين والصقل ، ولكن لوثر قد برع جميعا وفاقهم بما فى ترجمته من المتانة وما يعتقده فيها الناس من التقديس ، فقد بذل لوثر كل ما أمده الله به من روح وعقل فى تلك السبيل ، وبقدر ما كان للانجيل من الأثر فى أمور الخلق الدنيوية ، كذلك كان لترجمة لوثر من الأثر فى اللغة من تحوير فى شكلها والسيطرة عليها ، والتحكم فيها ، وقد كانت آثار لوثر الألمانية - من مؤلفات وخطابات وكتب ومواعظ وغيرها - نموذجاً لمعاصريه ولمن جاء بعده .

ومن أحسن ما كتب ـ عدا ما ذكرنا له ـ رسالة أسماها : « إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحيين لتحسين الطبقات المسيحية » ؛ وأخرى عنوانها « فى السجن البابلى للكنيسة » ، وثالثة اسمها « من حرية مسيحى » ، وقد ألف الثلاثة سنة ١٥٢٠ ، وأظهر فى السنة التالية رسالة اسمها « حواش وشروح كنسية » ، وأخرى عنوانها « تحذير صدق موجه إلى كل المسيحيين لحماية أنفسهم من الثورة والعصيان » ، وأظهر بعد عامين من ذلك رسالة عنوانها « إلى كل عمد ومستشارى كل المدن الألمانية أن يشيدوا مدارس مسيحية ويدعموا أساسها » .

أما اللغة التى اختارها فى ترجمته ولرسائله الأخرى ، فقد كانت لغة المنابر الكسونية المعروفة باسم اللغة العادية ، وهى وسط بين لهجة الجنوب الجافة وطراوة الشمال ، وفى ذلك يقول لوثر نفسه فى أحاديث المائدة (الفصل السبعين) : « لم تكن لى لغة خاصة فى ألمانيتى بل إنى استعملت اللغة الألمانية المألوفة التى يمكن أن يفهمها كل سكان الشمال والجنوب ؛ وإنى أتخذ لغة المنابر الكسونية لخطبى وهى اللغة التى يتكلم بها كل الأمراء والملوك فى ألمانيا » .

ولقد أصبحت تلك اللغة هى الغالبة المتسلطة وعرفت باسم « الألمانية العليا الحديثة » ؛ ولقد كتب كثير من ألمان الشمال والجنوب بلهجات مواطنيهم وبلادهم التى ولدوا فيها ، ولاسيما رجال الاصلاح فى سويسرا ، ولكن سرعان ما انتصرت عليهم تلك اللغة الألمانية العليا الجديدة التى ترجم بها الانجيل ؛ ولقد خدم لوثر الشعر الألمانى خدمة جليلة ، إذ كان أبا لأغانى الكنيسة الانجيلية التى كانت أغنى اللآلىء الغنائية زمن الاصلاح ، وكانت تعد من الأغانى الشعبية لمشابهتها : شكلا وبناء ، مقطعات وألحانا ، كما كان وجه الشبه أكبر فى التقسيم الثلاثى لأغانى الحب والغزل أثناء القرون الوسطى : قسمان منها فى الاستهلال قد تساويا بناء ولحنا ، وثالث فى ختامين قد حادا عن الطريق وأخذا مجرى آخر ؛ وبجانب الوعظ يقوم جزء هام رئيسى فى عبادة الله على الطريقة الانجيلية ، وعند ذكر الكلمة تتلى العقيدة الانجيلية ، ولقد نظم لوثر بنفسه سبعا وثلاثين أغنية للكنيسة ، كان أولها سنة ١٥٢٣ ومطلعها : « أبشروا يا معاشر المسيحيين الأعزاء » وقد أنشد بعد ذلك بعامين نحو عشرين أغنية ، وهو جل ما نظم ، كما أنه ترجم عن اللاتينية أحسن الأغانى الكنسية إلى الألمانية ، من ذلك : « الحمد لك يارب » ، وأغنية العقيدة « نؤمن بإله واحد » ، وأخرى عنوانها : « بينا نحن فى الحياة نرى الموت بنا يحدق » ، وأخرى اسمها : « تعال أيها الروح المقدس يا إلهى » ؛ وقد أعاد لوثر نظم بعض الأغانى الألمانية التى سبقته وحذف منها ما لا يجمل بها من زيادات ، كما أنه أضاف إليها بعض الفقرات والأسطر ، ونظم بعض آيات الانجيل نظما محكما مطلقا من القيود ، ولا سيما ما كان منها من المزامير ، وقد ظهرت أول كتبه فى الأغانى سنة ١٥٢٤ ، تحوى ثمانى أغنيات ، بينها أربع نظمها هو بنفسه ، وقد كانت الطبعة الأخيرة التى عنى بإصدارها بنفسه سنة ١٥٤٥ ؛

فقد كانت تحوى تسعاً وعشرين ومائة من الأغانى له منها سبع وثلاثون ؛ ولقد سار على نهجه فى نظم الأغانى مثله كثيرون لا نرى حاجة إلى ذكرهم .

ولقد كان لوثر حباً للأقاصيص ، فقد ترجم عدة منها من قصص (إيزوب) ، ونظم بنفسه قصة «النور والحمار» ؛ وقد تبعه بعض عشاق الاصلاح فى ذلك ، فقد أصدر أراسموس البيروس (المتوفى سنة ١٥٥٣) كتابا فى الفضيلة والحكمة يحوى تسعاً وأربعين أقصوصة ، وأصدر بورشارد فالدس أحد رعاة الكنيسة فى هسن (توفى سنة ١٥٥٧) مجموعة من الأقاصيص تحوى نحواً من أربعمائة ، وعنوان تلك المجموعة (إيزوباس) ، وقد كان هذان الأخيران قدوة لشعراء القصص أثناء القرن الثامن عشر ، ومن ذلك شعر القصص عن لسان الحيوان ، فذكر ما نظم جورج رولنهاجن ، وكان مديراً لمدرسة فى مجديرج ، وتوفى سنة ١٦٠٩ ، وكان عنوان مجموعته : « الضفادع والغيران وحدينها الملكى العجيب » ، والمرجع الذى اعتمد عليه فى تأليفه هذه المجموعة ما ينسب لهوميروس باسم « حرب الضفدع والغيران » ، وكانت فى ثلاثمائة شطرة ، فجعلها رولنهاجن عشرة آلاف ، ولم يأت على ذكر تلك الحرب بين الضفادع والغيران التى جعلها عنوان كتابه إلا فى النصف الثانى من الجزء الثالث ؛ وقد جعل الجزء الأول من النظم كرآة للدنيا خاصاً بطبقة الخاصة ، والثانى خاصاً بالحكومة الدينية والدنيوية ، وجعل الثالث خاصاً بطبقة المحاربين .

على مظهر

عتب الحبيب

وأنى ليعترف الحبيب بذنبه ... فتعثرت بلسانه الكلمات
وتعللت ألفاظه وتخاطبت ... عند اللقا بشفاهنا القبلات
وعدا العناق على العتاب ورجعت ... عن شجونا بصدورنا الزفرات
وبكت بأعيننا السماء وأفصحت ... عن قطرها بخدودنا الدمعات
وإذا العيون تقابلت نظراتها ... يعيا اللسان وتفصح الحدقات

محمد الصاوى عمار